اتجاهات التدين في المجتمع السوداني وأثرها على صعيد عنف الحضر في الفترة ١٩٨٩م - ٢٠٠٩م

عصمت محمود أحمد سليمان

Abstract: This study attempts to explore and analyze the trends of religiosity in the Sudan in connection with the emerging ideologically-induced aggression in Sudanese urban milieu. It traces the trajectory of religion (Islam) through the history of the Sudan to emphasize its peaceful nature. It then provides a number of ideologically-induced cases of aggression which took place recently in Khartoum and the Gezira, after which many people lost their lives. This suggests that ideologically-induced aggression in Sudan is a recent phenomenon resulting from, inter alia: weakness of the traditional religious institutions, inefficiency of guidance institutions, defect in education (general and higher) and the negative effect of the media.

١ - مقدمة

شهد المجتمع السوداني على مدار العقدين الماضيين مجموعة من الوقائع الموسومة بالعنف المفضي إلى إزهاق الأرواح وإهدار الممتلكات. ولقد جاءت أطراف عدة من تلك الوقائع موصولة بالسلوك المؤسس على مفهومات دينية، مما شكّل محفزاً لدراسة وتحليل اتجاهات التدين وأنماطه في المجتمع السوداني، وما طرأ عليها من تحولات.

تتخذ الدراسة منحىً تحاول من خلاله تقديم رؤية استكشافية لاتجاهات التدين وأنماطه وما طرأ عليها من تحولات، ومن ثم تقديم أطروحة تفسيرية لتلك الوقائع، بهدف الوصول إلى مقترحات تساعد في ضبط اتجاهات التدين بما يعضد تحقيق

الأمن الروحي والمادي على السواء.

تهدف الدراسة إلى التعرف على طبيعة أنماط التدين واتجاهاته في المجتمع السوداني، وهذا يقود إلى استكشاف التحولات الطارئة على طبيعة التدين، وذلك من أجل التحقق من وجود علاقات ارتباطية بين وقائع العنف المسبب عقائدياً من جهة، والتحولات الطارئة في اتجاهات التدين في المجتمع السوداني من الجهة الأخرى.

على الصعيد النظري تكتسب هذه الدراسة أهميتها من توجهها نحو رصد وقائع العنف المسبب عقائدياً في المجتمع السوداني ودراستها وتحليلها، وهي تمثل مجموعة من الوقائع ما يزال العقل السوداني ذاهل عنها. وليست الدراسة في مقام الدعوى بأنها ستغطي كل هذه الوقائع، ولكنها تحاول أن تجيئ على طائفة من تلك الوقائع تعبر في مجملها عن جوهر الظاهرة.

أما على الصعيد العملي فإن أهمية الدراسة تجيئ من سعيها للتوصل إلى معطيات عملية تقود إلى الإستفادة من الدين باعتباره مكوناً جوهرياً في عملية تحقيق الأمن الروحي، وعاملاً فاعلاً في تعضيد التماسك الاجتماعي. وتتحدد بصفة عامة أبعاد هذه الدراسة بالعنف المسبب عقائدياً وعلاقة ذلك باتجاهات التدين في المجتمع السوداني وأنماطه. ويكاد هذا السياق أن يجمل مشكلة البحث في ثنايا الأسئلة التالية:

- ما هي أهم اتجاهات وملامح التدين في المجتمع السوداني؟
- ما هي التحولات الطارئة على اتجاهات التدين في المجتمع خلال نطاق الدراسة؟
- هل توجد علاقة ارتباطية بين تلك التحولات – إن وجدت – ووقائع؟

– هل يمكن ضبط اتجاهات التدين بما يجعل من الدين محفزاً لدعم الأمن الروحي والتماسك الاجتماعي؟

وموضوعياً فإن الدراسة تتحدد وفق عامل يشير إلى أن الإسلام هو الدين الغالب في المجتمع؛ ومن ثم فإن الإشارة إلى الدين والتدين في ثنايا هذه الدراسة لا ينفكان موصولان بالإسلام بصورة محورية، كما أن الدراسة على صعيد نطاقها المكاني والزماني يحددها المجتمع السوداني في مراكزه الحضرية لفترة تغطي الأعوام ١٩٨٩ – ٢٠٠٩م.

في سبيل التأسيس الفلسفي للمفاهيم الكلية للدراسة بوقائع العنف المسبب عقائدياً في نطاق الدراسة ومن ثم رصده وتحليل أبعاده، فقد عمدت الدراسة إلى تبني منهج البحث الوصفي التحليلي باعتبار أن هذا يوفر للبحث منهجية واسعة ومرنة تتضمن طائفة من الأدوات والأساليب المنهجية. فالمنهج الوصفي يستند بصورة جوهرية إلى تحديد خصائص الظاهرة ووصف طبيعتها وبيان ضروب العلاقة بين متغيراتها وأسبابها واتجاهاتها، وذلك للتعرف والإحاطة بتلك الظواهر أو المشكلات. كما أنه من الأهمية الإشارة إلى أن منهجية الدراسة تتجاوز مجرد جمع البيانات حول الظاهرة إلى التحليل والربط والتفسير لهذه البيانات وتصنيفها وقياسها واستخلاص النتائج منها.

تتضمن الدراسة في بنائها، إلى جانب المقدمة والخاتمة، ثلاثة مباحث أساسية، يجيئ المبحث الأول بمثابة التأسيس الفلسفي حيث يتناول منظومة المفاهيم المؤسسة للدراسة، ويعنى المبحث الثاني بعرض سمات اتجاهات التدين في المجتمع السوداني، ويخلص بنا المبحث الثالث إلى دراسة التحولات الطارئة في اتجاهات التدين في المجتمع وأثرها على صعيد عنف الحضر.

٢- مفاهيم الدراسة وإطارها المرجعي

تلامس هذه الدراسة حقولاً معرفيةً متعددة؛ فتتمدد قضاياها في مجالات فلسفة الدين وعلم الاجتماع الديني وعلم النفس، كما تلامس مجموعة من القضايا والمسائل الأصولية والفقهية في ثنايا الفكر الإسلامي، وذلك بهدف تقديم رؤية نقدية لبعض المناحي المفصلية في العقل الفقهي الإسلامي. لهذا يبدأ الباحث بتجلية بعض المفاهيم الأساسية المتعلقة بهذه الدراسة.

أ) مفهوم التدين

تشتق كلمة تدين من مفردة "دين"، وكلمة "دين" ترد في سياق النص القرآني منفتحة على طائفة من الدلالات والمعاني، مما يشير بوضوح إلى أن مفردة "دين" ذات سعة دلالية. فالدين عند أهل اللغة العربية يعني الجزاء والمكافأة، كما يعني العبادة والطاعة والإسلام والسلطان والقهر والعادة والشأن والداء، وكلها معاني للدين أوردها صاحب لسان العرب مستشهداً لها بفصيح كلام العرب.[١]

عند قراءة طائفة من الآيات القرآنية التي ترد فيها كلمة الدين كقوله تعالى:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)،[٢] (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)،[٣] (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ

(١) ابن منظور (د. ت): لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة، دار المعارف، ١٤٦٧/٢ وما بعدها.

(٢) سورة الفاتحة: الآية ٤.

(٣) سورة ال عمران : الآية ١٩.

في دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)[٤] (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ)[٥] (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ).[٦]

هكذا نستطيع أن ندرك أن الدلالة لكلمة الدين الواردة في ثنايا هذه الآيات كلها لا تسير في اتجاه سياق ودلالة مفردة بعينها، بل تظل ذات وجوه شاملة لكل معاني الجزاء والاستسلام والطاعة والإتباع. من هنا يتصف أي دين على نحوٍ مطلق بارتباط الفرد بقوة روحية عليا قد تكون أحادية أو متكثرة، والاعتقاد في قيم مطلقة، وهذا منحى يحوم بالكلية في مجال التصورات والتصديق بها. ولكن ثمة جانب آخر للدين، وهو ماثل في ممارسة طائفة من الشعائر والطقوس.

فليس الدين محض تصورات يصدقها الفرد، إنما الدين الحق يعني القيام بحق تلك التصورات المصدق بها من قبل الفرد في واقع الحياة المعاش، وهذا ما يجعل لمعنى الدين فاعلية في الحياة الإنسانية بأسرها. وعندما نشير إلى أن الدين بإطلاق يعبر عن المطلق في إطلاقه وعن المحدود في محدوديته، وعن العلاقة بينهما، فإننا نبصر عندئذٍ ماهية تلك العلاقة في واقع الأفراد ولا نباشر رؤية ذلك الدين في أصوله الأزلية الراسخة؛ فنحن نقف على جهد الأفراد في التعبير عن تلك العلاقة بين المطلق من جهة والمحدود من الجهة الأخرى.

ومن جهة ثانية، فإن التدين هو كسب الأفراد وتجاربهم في محاولتهم تلوين وتشكيل حياتهم وفق تصورهم للمطلق في إطلاقه وللمحدود في محدوديته. وهم

(٤) سورة يوسف: الآية ٧٦.

(٥) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

(٦) سورة الكافرون : الآية ٦.

في مسعاهم ذلك يكوِّنون نظاماً دينياً لا ينفك أن يجيء نتاج شتى الظروف والمؤثرات التاريخية، والاجتماعية، والثقافية، والبيئية، وغير ذلك.

إذن فمفهوم التدين ينصرف تجاه الكسب الإنساني فيما يلي استيعاب الأفراد العميق لأحكام ومرامي ومقاصد الدين في واقع حياتهم، سواء أكان في التصورات أو الشعائر والآداب (العقيدة، والعبادة، والقيم). فهذا التدين بهذا المعنى يتسع ممتداً بمساحة انبساط النفس في علاقاتها بربها وبذاتها وبما يحيط بها من حولها. وفق هذا السياق فإن مفهوم التدين في دلالته الواسعة لا يعدو أن يكون محض كسب بشري يقوم به أفراد في زمان ومكان بعينهما، لذلك فـ"التدين" ككل جهد بشري لا يتصف بالإطلاق مثلما هو الحال مع "الدين"، بل هو نسبي قاصر متغير تبعاً لظروف ومعطيات البيئة الاجتماعية والتاريخية التي أحاطت بمجتمع ما.

هنا ينبغي الإشارة إلى أنه على الرغم من التقدم المنهجي والبحثي، إلا أن استخدام جوانب التدين ما زال غير مرضٍ من الناحية الأكاديمية، وتواجه المحاولات التي تبذل للبحث في جوانب الدين بالعديد من الصعوبات، خاصة المشاكل المتعلقة بقياس التدين، وكذلك الأمر بالنسبة للعلاقة بين قياس تدين الفرد وتدين النسق ككل.[٧]

وعلى الرغم من أن المجتمع السوداني قد توطأت فيه تعاليم دينية متعددة، بدءاً من الوثنيات القديمة مروراً بالمسيحية وانتهاءً بالإسلام، إلا أن الإطار الموضوعي للدراسة فيما يلي الإشارة إلى الدين ينصرف بصورة أساسية ومباشرة نحو العناية بالدين الإسلامي. وعندما نشير إلى التدين فإن المراد هو الكسب الإنساني المتأتى

(٧) محمد أحمد بيومي (د ت): علم الاجتماع الديني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص ١٨٤.

بواسطة المؤمنين بهذا الدين والمسلمين وجوههم لتعاليمه في مسعاهم لتطبيق أحكام ومرامي ومقاصد الدين في واقع حياتهم.

وفق هذا السياق فإنه لا ينبغي الإشارة إلى إسلام أو دين سوداني أو نحو ذلك، ولكننا نشير إلى تدين سوداني ونحوه، ونعني في كلِ ذلك الإشارة إلى جهد بشري تقوم به طائفة من المؤمنين بهذا الدين في هذا المجتمع أو ذاك، بتمثل أبعاد ذلك الدين في واقع مجتمعاتهم. ويتوقف ذلك الجهد على اتساع قدرة العقل الإنساني على النظر والتدبر والتأمل في الأمور، وفحص وجوه التباين بينها والخلوص إلى نتائج صائبة وآراء ثاقبة من الجهة الأخرى. فالتدين على هذا النحو يغدو ظاهرة اجتماعية قوية الارتباط والتفاعل مع سائر أنظمة المجتمع.

من هنا فإن الحديث عن اتجاهات التدين تعني بصفة مباشرة وضع ذلك الجهد وتجلياته على منضدة البحث والتشريح العلمي، بحسبانه منتوجاً إنسانياً محضاً منزوع القداسة والإطلاقية، ومتداخلاً في ذات الوقت في علاقات تفاعلية مع الوحدات الاجتماعية الأخرى.

ب) مفهوم العنف

لا تنحصر صعوبة إيجاد تعريف جامع ضابط الدلالة حول العنف إلى أن الأخير كظاهرة إنسانية لازمت مسيرة الإنسان يمكن النظر حيالها واستيعابها عبر مداخل ونظم معرفية عديدة كالأديان والفلسفة والتربية وعلم الاجتماع فحسب، بل يضاف إلى ذلك تعدد صور العنف وأدواته، ومن ثم فإن المسعى هنا يطمح نحو إيراد مفهوم كلي للعنف يساعد على ضبط منهجية الدراسة وتوجيهها نحو أهدافها.

تعود مفردة "عنف" في اللغة العربية إلى معنى الخرق وقلة الرفق؛ فعنف به وعليه بمعنى أخذه بقسوة وشدة ولامه وعيَّره، وطريق معتنف يُراد به غير قاصد، واعتنف

بمعنى الجور والبعد عن القصد. فالعنف يُراد به كل سلوك ينطوي على معاني الشدة، القسوة، اللوم، التعيير، التوبيخ، التقريع، والجور والبعد عن القصد. أما مرادف مفردة "عنف" في بعض اللغات الأوربية Violence فترتد إلى الأصل اللاتيني[٨] Violent ويُراد بها استخدام القوة استخداماً غير مشروع أو غير مطابق للقانون من شأنه التأثير على إرادة فرد ما.[٩] فالعنف وفق هذا السياق الدلالي لا يتجاوز دائرة الاستخدام الفعلي للقوة المباشرة متمحوراً حول مفهوم الشدة والقوة، أما ذات الدلالة في اللغة العربية فتتسع لجوانب أخرى لا تتضمن استخداماً فعلياً للقوة المادية.

يحدد معجم Webster العنف بأنه استخدام القوة للحرمان من الحقوق عن طريق الاستخدام غير العادل للسلطة أو القوة. وبصفة عامة يمكن تعريف العنف بأنه سلوك يهدف إلى إيقاع الأذى بالآخرين أو ما يرمز له.[١٠]

وبالنظر إلى ماهية السلوك الموسوم بالعنف فإنه يمكن تصنيفه إلى عنف مادي ينطوي على إيقاع الأذى المباشر بالآخرين أو الممتلكات كأفعال القسر، الإكراه، الاغتصاب، السرقة، الإتلاف، التدمير، التخريب ونحو ذلك من الأفعال المنطوية على عنف مادي. والعدوان بصفة عامة يمثل أحد أوجه العنف.[١١] وهناك عنف معنوي غير مادي يتضمن التهديد والتخويف، الشتم، التعيير، التشهير، السخرية، الاستهزاء، وشهادة الزور.

(٨) Webster, M (1990): *Webster's Ninth New Collegiate Dictionary*. New York: Merriam Webster Inc., p. 1316.

(٩) أحمد زكي بدوي (١٩٧٨م): معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان،بيروت، ص ٤٤١.

(١٠) Webster M., *op.cit.*, p. 1316.

(١١) Adams, James (1973): *Understanding Adolescence*. Boston: Allyn and Bacon Inc., p. 97.

كما يمكن تصنيف العنف باعتبار الجهة التي صدر عنها إلى عنف فردي وآخر جماعي، ويتمثل العنف الفردي في قيام فرد بأفعال ظاهرة تعبر عن العدوان تجاه الآخرين، أما العنف الجماعي فهو قيام جماعة من الأفراد بأفعال عدوانية ظاهرة تجاه فرد أو جماعة أو السلطة ورموزها، وقد يأخذ أشكالاً مختلفة كالتمرد والعصيان والتظاهر ونحو ذلك. وربما أشار البعض إلى عنف الدولة باعتباره صادراً عن الدولة متمثلة في بعض مؤسساتها ضد عناصر أو مجموعات اجتماعية أو سياسية بعينها.

من جهة ثالثة يمكننا من خلال النظر إلى البنية الاجتماعية وفق سياق كلي الخلوص إلى تصنيف العنف على نمطين؛ الأول هو العنف السلوكي، وهو ما تتجلىً مظاهره في ممارسات وسلوكيات ظاهرة سبق الإشارة إليها. والثاني هو ما يعرف بالعنف الهيكلي أو البنائي. ويتجلى العنف الهيكلي عند النظر إلى العنف بحسبانه مجموعة من الاختلالات والتناقضات الكامنة في البنية المجتمعية سواء على المستوى الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو السياسي، أو الديني، أو الثقافي.

ويتخذ العنف البنائي أو الهيكلي أشكالاً عدة، منها غياب التكامل الوطني داخل المجتمع وسعي بعض الجماعات للانفصال عن الدولة، وغياب العدالة الاجتماعية، وحرمان قوى معينة داخل المجتمع من بعض الحقوق السياسية، وعدم إشباع الحاجات الأساسية كالصحة والتعليم لقطاعات عريضة في المجتمع". (١٢)

هذا العنف الهيكلي أو البنائي يُشار إليه أحياناً بالعنف الخفي لأنه عنف كامن في البُنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية للمجتمعات، تمييزاً

(١٢) حسين توفيق إبراهيم (١٩٩٩م): ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، الطبعة الثانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ٢٣.

له عن العنف الظاهر والذي يتم التعبير عنه بسلوكيات وممارسات ظاهرة وملموسة. لا يكاد العنف على المستوى السلوكي ينفصل عن العنف البنائي أو الهيكلي؛ فثمة علاقة وثيقة بين هذين النمطين، فوجود الاختلالات والتناقضات والتوترات على الصعيد المجتمعي تزيد من احتمالات حدوث العنف على المستوى السلوكي.

ج) مفهوم الحضر

كثيراً ما يُصنَّف السكان وفق معايير اجتماعية واقتصادية وبيئية إلى بدو وحضر، بحسبان أن التنقل الدائم والترحال هو النمط السائد لدى البدو؛ بينما سكان الحضر يتصفون بالاستقرار في مساكن ثابتة ومستقرة.[١٣] وهكذا فإن مصطلح الحضر يتحدد بصورة أساسية حول معنى الاستقرار، ليتضمن كافة أنماط الوجود السكاني المستقر مشتملاً حياة المدن والريف على السواء. وليس دقيقاً ما هو ذائع الشيوع من الإشارة إلى المدن كمرادف للحضر وكليهما في مقابل الريف، ويبدو هذا مفارقاً منذ الوهلة الأولى للجذر اللغوي لكلمة حضر التي تشير إلى الاستقرار. ووفق هذا السياق فإن المراد بالحضر في ثنايا هذه الدراسة يتحدد بصورة أساسية بنمط الاستقرار السكاني، ويعني بصفة مباشرة المجتمعات السكانية المستقرة.

٣- الإسلام واتجاهات التدين في المجتمع السوداني

غدا الإسلام منذ توطنه في السودان عصب الحياة في المجتمع السوداني، ومنذ وقتٍ باكر بدأ لطائفة من الباحثين في حقل الإنسانيات أن تفاعل حركة المجتمع مع الدين الإسلامي اتخذت سمات تبدو متمايزة في بعض المناحي عن سائر المجتمعات

(١٣) أحمد على إسماعيل (١٩٨٥م): دراسات في جغرافية المدن، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، القاهرة، ص ١٣.

الإسلامية. "فلقد تلقى السودانيون الإسلام بصدقٍ وإخلاص، ولكن من خلال مقدرتهم الفذة على الاستيعاب، شكلوه في عقليتهم الخاصة، منفلتين من صيغة علماء الدين، غنوا فيه ورقصوا فيه وبكوا فيه، وادخلوا فيه عاداتهم الخاصة وأعيادهم، وأدخلوا فيه قدراً كبيراً من الوثنية، ولكنهم حافظوا على الحقيقة الحية لوحدة تراثه تحت حكم إله واحدٍ".[١٤]

وفي سبيل تبيان ملامح وسمات التدين في المجتمع السوداني فإن الباحث يجيء ابتداءً على جملة من العوامل التاريخية والحضارية التي أثرت على نحوٍ أساسي في تشكيل اتجاهات التدين في المجتمع السوداني.

أ) السودان المتديِّن

منذ وقتٍ باكرٍ عرف السودانيون حياة الانتماء الديني، وظل الدين حاضراً في تشكيل شؤون حياتهم. ففي الحقبة الكوشية (٧٥٠ ق.م- ٣٢٥م) كان الملوك يحكمون استناداً إلى فكرة الحق الإلهي، وظلت المعابد الوثنية تنال الاهتمام والعناية، كما كان لرجال الدين منزلة مقدمة وحظوة مشهودة في سلك المملكة.

وعندما نقل الكوشيون عاصمتهم من نبته (Napata) إلى مروي (Meroe) شمال الخرطوم نجد أن تشييد مروي احتلت المعابد مكاناً بارزاً فيها. وقد جاء ذكر أرض كوش في العهد القديم (سفر التكوين) عند ذكر قصة أبناء نوح الثلاثة الذين تفرقوا ليعمروا الأرض بالنسل الإنساني،[١٥] وهو ما يشير إلى حضور تلك البقعة في المخيال

(١٤) ج. سبنسر تريمنجهام (٢٠٠١م): الإسلام في السودان، ترجمة فؤاد عكود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ص ١٠.

(١٥) جوان جوزيف (١٩٨٤م): الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص ٤٢.

الديني القديم، وهو ما جعلها منطقة جاذبة للدين المسيحي، ومن ثم توطنت المسيحية السودان في عهد الممالك الثلاث نبتة ومقرة وعلوة في القرن السادس الميلادي، وظل هذا الحال إلى أن أضحى الإسلام هو الدين الغالب فيما أعقب قيام السلطنات الإسلامية.

ب) التحول السلمي نحو الإسلام

يكاد إجماع المؤرخين أن ينعقد بأن عملية التحول إلى الدين الإسلامي في المجتمع السوداني كانت بطيئة جداً، وأن انتشار الإسلام اتسم بالتدرج،[١٦] وهو على غير المتوقع وفق التوسع الإسلامي السريع في عهوده الباكرة. فسودان وادي النيل لم يصبح بلداً مسلماً كما يشير د. يوسف فضل إلا بعد قيام السلطنات الإسلامية كالفونج والفور وتقلي.[١٧]

ويلاحظ بصورة أساسية أن توطن الإسلام في السودان لم يصحبه في الأغلب الأعم عنف من قبل المسلمين. بل على النقيض، فإن العوامل البارزة التي أفضت إلى انسراب الإسلام نحو البنية الاجتماعية كالهجرات البشرية والمخالطة والمصاهرة تجعل من ذلك التحول يتخذ منحىً رفيقاً. فتم الإبقاء على سائر النظم والأعراف والمؤسسات القائمة، بل واتخذت وسائط للنفوذ الإسلامي في المجتمع. وكل ذلك أدى بدوره إلى لطف وعفوية عملية التغيير والإصلاح في اتجاه التعاليم والآداب الإسلامية، على نحوٍ مغاير لما شهدته سائر المجتمعات الإسلامية، إذ أخذت عملية التغيير والتحول فيها منحىً حاسماً وناجزاً.

(١٦) ج. سبنسر تريمنجهام، مرجع سابق، ص ٢.

(١٧) يوسف فضل حسن (١٩٨٢م): الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام في السودان، ورقة علمية قدمت إلي المؤتمر الأول لجماعة الفكر والثقافة الإسلامية، الخرطوم.

ج) تجذر تجارب التعايش والمسالمة بين المتدينين

كثيراً ما يُنظر إلى تجربة سودان وادي النيل في التعايش بين الدين المسيحي والإسلام بغير قليلٍ من التقدير والاحتفاء، وهي بأكثر من وجهٍ جديرة بذلك. بيد أنه ينبغي التنبه إلى أن مثال التعايش الديني والمسالمة الدينية في المجتمع السوداني قد سبقت تلك الحالة بأزمان بعيدة، فمثلما سبقت المسيحية الإسلام في التوطن في سودان وادي النيل فقد سبقته في إبراز تجربة التعايش والمسالمة مع الآخر.

سالمت المسيحية عند دخولها المجتمع السوداني الديانة الوثنية السابقة عليها تاريخياً، وقد جاء أول اتصال للمسيحية بسودان وادي النيل في القرن السادس الميلادي بمحاولة من الكنيسة المصرية.[١٨] وعلى الرغم من أن المسيحية انتشرت لاحقاً بصورة كبيرة في أرض النوبة، خاصة في عهد أوغسطين، إلا أن ذلك لم يمنع السماح بوجود معابد وثنية في أرض النوبة والبجا على السواء.[١٩]

وجاء الإسلام إلى أرض النوبة فسلك ذات المسالمة منهجاً للتواصل الحضاري مع السكان الوطنيين. ويذكر المؤرخون أن المنطقة بين النيل وتشاد كانت مأهولة بالسكان، وكانت دنقلا في القرن السابع الميلادي تضم أغلبية مسيحية وأقلية مسلمة. وفي العام ٦٥٧م، أي بعد أحدَ عشر عاماً من الفتح الإسلامي لمصر، انعقدت اتفاقية بين عبدالله بن سعد بن أبي السرح وملك النوبة، التزم الأخير بمقتضاها بالإبقاء على المسجد المحلي وتهيئته لأداء الشعائر فيه من قبل المسلمين. وهذا يشير إلى أن المجتمع السوداني في عهد مسيحيته ظل يتعايش بسلام مع الدين الوافد، مما أكسب

(١٨) ج. سبنسر تريمنجهام، مرجع سابق، ص ٥٧.

(١٩) نفس المرجع، ص ٥٨.

المسلمين ذات النهج في التعامل لاحقاً مع التصورات والمؤسسات القائمة. وهكذا أضحت خصال المسالمة الاجتماعية والتسامح الديني صفات عفوية ماثلة في البيئة السودانية.

د) الطريق الصوفي ومؤسساته الاجتماعية والتربوية

خضع انتشار الإسلام في السودان خضوعاً تاماً للجو الصوفي، وكان لرجال الطرق الصوفية دور كبير في نشر العقيدة الإسلامية ونشر مفاهيمها. وقد اتبعوا منهجاً مبسطاً يعتمد التلقين ومداومة الأذكار، كما استعملوا الطبول والترانيم، مما حبب العامة في الانخراط في سلك الطريقة.

ومع تقدم حركة التدين في المجتمع السوداني أخذت الطرق الصوفية تنال مقام التقدير والتبجيل من العامة وعلى الصعيد الاجتماعي والثقافي من جهة، كما تعاظم دورها ونفوذها على الصعيد السياسي من الجهة الأخرى. ففي عهد دولة الفونج مثلاً نلحظ مظاهر تقرب الحكام والسلاطين إلى رجال التصوف، فلا يقطعون أمراً دون مشورتهم، ويحفظ لهم حق الشفاعة، ويبذل لهم المال والهدايا. عليه نستطيع القول بأن الأثر الصوفي الذي صبغ حركة التدين في المجتمع السوداني هو مما دعم وقوى من اتجاه السماحة والمسالمة التي تتجذر في البيئة السودانية.

نخلص إلى أن اتجاهات التدين في المجتمع السوداني فيما يتصل بالإسلام تشكلت من خلال استعداد اجتماعي عام لتقبل فكرة الانتماء والالتزام الديني، وبلورة تلك الفكرة من خلال منهج يميل نحو الرفق واللطف في التحول وإحداث التغيير، وفق منحى مسلك عام يعتمد التسامح والتعايش الديني سمتاً أساسياً لمظاهر تفاعل الأفراد مع تعاليم وآداب الدين الإسلامي.

٤- التحولات في اتجاهات التديُّن في المجتمع السوداني وأثرها على صعيد عنف الحضر

حاول الباحث فيما سبق تلمس المعالم الأساسية لسمات التدين واتجاهاته في المجتمع السوداني، ليخلص إلى أن السودانيين توارثوا مسالك للتدين تعزز من قيم التسامح والمسالمة، وتنتهج الترفق واللطف والتأني في إحداث التغيير والإصلاح المتأني.

أحاول فيما يلي تلمس التغييرات الطارئة على تلك السمات والاتجاهات من خلال رصد وتحليل طائفة من الوقائع ذات الصلة بظاهرة العنف المسبب عقدياً، وهي وقائع وإن بدت معدودة إلا أنها في جملتها يراد لها أن تعبر عن جوهر الظاهرة المراد الدلالة عليها، ومن ثم محاولة تلمس العلاقة الارتباطية بين تلك الظاهرة من جهة، والتحولات الطارئة على سمات واتجاهات التدين من جهة أخرى.

أ- رصد عام لوقائع العنف المسبب عقائدياً

بينما كانت الجموع تشهد شعيرة صلاة الجمعة بجامع أنصار السنة المحمدية بالحارة الأولى بمدينة الثورة بأمدرمان، فإذا ثلاثة من الشباب يمطرونهم بوابل من الرصاص فيلقى خمسة عشر مصلياً مصرعهم ويُصاب العشرات بجروح. هذا الحادث الذي شهدته العاصمة السودانية في العام ١٩٩٤م نُظِر إليه يومئذٍ بحسبانه غريباً عن روح المسالمة التي يفيض بها المجتمع السوداني.

بيد أن ما هو غريب عن خصال المجتمع السوداني ما فتئ في التكرار حتى كاد أن يتلبس صفات ما هو مألوف من الفعال والسلوك. ففي النصف الثاني من تسعينيات القرن الماضي انطلقت مجموعة من الشباب المنتمين إلى بعض الجماعات الدينية صوب ولاية الجزيرة، وفي إحدى قراها نشبت اشتباكات دامية بالأسلحة البيضاء مع مجموعة

دينية أخرى ذات أفكار مخالفة لها. ليلحق ذلك في الثامن من ديسمبر ٢٠٠٠م وأثناء أداء المصلين لشعيرة صلاتيَّ العشاء الآخرة والتراويح بمسجد بضاحية أمدرمانية قابل أحد الأفراد جموع المصلين أيضاً بزخات من الرصاص المنطلق من بندقية شبه آلية، فيصيب منهم اثنين وثلاثين قتيلاً وأكثر من الخمسين جريحاً. ولم يكن خافياً في هذا الحادث الأليم القدرة القتالية التي تعامل بها الجاني مع السلاح ومواجهته الدامية مع رجال الشرطة التي هبت لمكان الحادث.

وليس بعيداً عن هذا العنف المادي المباشر ذلك العنف القولي المتضمن تحقير الآخرين ووصمهم بالمثالب والدونية، ونجد ذلك ماثلاً بجلاء طائفة من البيانات والأطروحات الدينية التي أخذت تجد طريقها للرأي العام منذ مستهل تسعينيات القرن الماضي وهي تدعو إلى تحريم تهنئة المسيحيين بأعيادهم والدعوة إلى مقاطعة تلك الأعياد. وقد صدر يومها بيان من أحد مجالس الفُتيا لإحدى الجامعات يعضد تلك الأطروحة. وما تزال تلك البيانات يُوالى إصدارها في خواتيم كل عام ميلادي. كما دار لغط كثيف حول زيارة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني للخرطوم في مستهل تسعينيات القرن الماضي.

ثم انتقل هذا المسلك الموسوم بالعنف المعنوي ليصوِّب سهامه ضد مجموعات دينية وفكرية داخل بنية المجتمع المسلم، ويمضي أكثر في اتجاه تعيين أشخاص بعينهم ووصمهم بالخروج عن الإسلام، كما في حال أحد مشائخ الطرق الصوفية، أو إعلان إهدار دم هذا الشخص كما هو الحال مع طائفة من المفكرين والصحفيين والكتاب.

وكثيراً ما يتلازم هذا العنف المعنوي مع عنف مادي مباشر. ففي شهر مايو من العام ١٩٩٨م استجاب عشرات الطلاب لتحريض أحد الأساتذة فنهضوا لإتلاف

وحرق معرض الكتاب المقدس للأخوة المسيحيين. وفي العام ٢٠٠٤م منعت فئة من الطلاب استناداً إلى ذات المرجعية الدينية عرضاً لأحد الأفلام بدعوى أنه يتضمن منحىً تبشيرياً.

في العام ٢٠٠٨م وضعت السلطات الرسمية يدها على مجموعة من الشباب، بينهم طلاب جامعات، يتلقون تدريبات على أعمال القتال والتفجير بمواد متقدمة بضاحيتي سوبا والسلمة. ولم يكن خافياً أن تلك الفئة من الشباب، ومنهم طلاب جامعات، تستند إلى مرجعيات دينية ذات أفكار وافدة.

لذا لم يكن غريباً أن تشهد ليلة استهلال العام ٢٠٠٩م مقتل المواطن الأمريكي جون غرانفيل وسائقه السوداني عبد الرحمن، وقد أفضت ذات المرجعيات والمفهومات الدينية تلك إلى هذا الحادث الأليم.

ب- تحليل عام

نستطيع من خلال تدبر تلك الوقائع الخلوص إلى بعض المؤشرات التي يمكن أن تفيدنا في تفهم ظاهرة العنف المسبب عقائدياً، ومن ذلك أننا نلاحظ بصفة عامة أن ثلاثة من تلك الوقائع الموسومة بالعنف المادي جاء مسرحها المباشر "الجامع"، وهو بقعة تقابل بكثير من الاحتفاء والتقديس عند المسلمين.

كما أن مصدر العنف استهدف إيقاع الأذى بأكبر قدر من المصلين، فجاء اختياره لساعة احتشاد المصلين في أداء شعائر جاذبة للمصلين. وهذه المؤشرات من حيث المكان والزمان وماهية السلوك الموسوم بالعنف عبرت في مجملها بجلاء عن مقدار المفارقة الفكرية والتربوية والنفسية الذي نجده لدى المنضوين تحت لواء تلك الظاهرة من جهة، وروح التسالم والتعايش التي يعبر عنها التدين في المجتمع السوداني من خلال الرحابة في تقبل الآخر من جانب آخر. وما سبق يدعونا إلى

تقصي ظاهرة العنف المسبب عقائدياً ليس فيما هو متجذر وأصيل في مكونات التدين في المجتمع السوداني، بل ينبغي التنقيب في اتجاه ما هو سطحي ووافد.

لقد بدا للباحث من خلال قراءة تلك الوقائع، خاصة فيما يلي الأطراف المشاركة والداعمة والمهيئة لها، أن تلك الوقائع لا تعبر عن النزعات الأصيلة لروح التدين في المجتمع السوداني، الذي تشكل عصب التدين فيه من خلال منهج يميل نحو الرفق واللطف في التحول وإحداث التغيير، وفق منحى مسلك عام يعتمد التسامح والتعايش الديني سمتاً أساسياً لمظاهر تفاعل الأفراد مع تعاليم وآداب الدين الإسلامي. وعليه يشير الباحث إلى أنه خلال العقدين الماضيين تكاثفت على الصعيد الاجتماعي والديني عوامل ومؤثرات عديدة عملت على إحداث تغيير وتحوير في اتجاهات التدين الأصيلة. ويدعم تلك الرؤية أن يشار إلى أن الفئات التي صدر عنها العنف أو شاركت فيه أو سعت للتهيئة للولوج إلى دائرته تنتمي إلى فئة الشباب، وبعضهم طلاب جامعات، وكثيرٌ منهم اتخذ مرجعيات فكرية لأفراد وعلماء تأثروا وتشكَّلوا من خلال أنماط تدين طارئة على المجتمع السوداني؛ وهي أنماط من التدين لا تتسم برحابة وسماحة التدين السوداني.

٥- المؤثرات والعوامل التي هيأت لإحداث التغيير في اتجاهات التدين

يلحظ المتابع لمجريات الأمور على الصعيد الاجتماعي أن وقائع العنف السلوكي المسبب عقائدياً أفضت إليها ومهد لها جملة من العوامل عملت على خلخلة مفاصل أساسية في نمط تدين السودانيين. فهناك طائفة من المؤثرات الاجتماعية والتربوية والإعلامية عملت على تسريع وتيرة التغير في مزاج التدين السوداني، مما يدعونا إلى الإشارة إلى أننا بإزاء تَكون وتدعيم نمط للعنف الهيكلي أو البنائي، وهو ما تولد عنه

بعض ظاهرات العنف السلوكي المرتد إلى ذلك النمط من العنف المعبر في جوهره عن أكثر من منحى للاعتلال في بنية الاجتماع الديني. ويمكن الإشارة إلى تلك العوامل فيما يتعلق بما يلي:

أ) ضعف مؤسسات التدين التقليدية

واكب نشؤ الدولة الحديثة في السودان وبزوغ نجمها تواري مؤسسات التدين الشعبي عن أداء مهامها العتيدة، لذلك يمكن الإشارة إلى ضعف مؤسسات التدين التقليدي، بدءاً بخفوت الهالة القدسية لشيوخ الطرق الصوفية وانتهاءً بتراجع دور المسيد والخلوة وحلقات الذكر في تشكيل الوجدان اليومي للأفراد في المجتمع السوداني. هذا الفراغ الذي أحدثه تراجع مؤسسات التدين التقليدي، أخذت تزدهر قبالته مؤسسات تعبر عن نمط تدين وافد على البيئة السودانية، وهو نمط لا يعتمد وسائل التربية الصوفية المستندة إلى الملازمة والخدمة ومحو النفس، بغير انصراف كثير نحو ترديد النصوص وحفظها.

ب) اعتلال مؤسسات التوجيه والإرشاد

شهدت حقبة التسعينيات من القرن الماضي وعبر وسائط إعلامية ركاماً من البيانات والفتاوى نشرت على الرأي العام توصم هذا أو ذاك بالخروج عن دائرة الإسلام وخلع ربقته. وبعض ما صدر منسوب إلى مؤسسات دينية يحلق بعضها في فلك رعاية الدولة. ولئن وجدنا ذلك العنف يصدر بادئ الأمر في سياق مماحكات السياسة وتوظيفها لما هو ديني، وهو أمر دارج في التاريخ الإسلامي استهله معاوية بن أبي سفيان بإجرائه الأئمة على لعن الإمام علي رضي الله عنه من على منابر الجمعة، إلا أن الأمر سرعان ما أوجد اتجاهاً أخذ يقوى في مفاصل المجتمع، اتجاه عماده كراهية الآخر والسعي لإقصائه إن لم يكن استئصاله بالكلية.

وما سبق يعبر عن واقع مأزوم استعاضت فيه مؤسسات الإرشاد والتوجيه عن القيام بدورها في تعزيز أواصر وعرى التسامح والمحبة التي يفيض بها موروث التدين السوداني، لتنقلب إلى أدوات لإضعاف تلك الخصال وتدعيم اتجاهات التدين الوافد والقائم على إقصاء الآخر.

ج- الخلل في مؤسسات التعليم العالي والأدنى

لعله مما زاد من فداحة الأمر وهيأ لانتقال هذا العنف المعنوي إلى عنف مادي مباشر أن الجهات التي تصدرته تمثلت في طائفة من أساتذة الجامعات، وهم من يُرجى منهم أن يكونوا لمن يليهم من الطلاب والشباب دعاة لأفق معرفي ينأى بأصحابه عن ضيق الكراهية والبغضاء إلى باحات أرحب من محبة الآخر والتودد إليه طلباً لعلم أو هدايةً به.

ويعجب المراقب لحقل التعليم الجامعي عندما يُشار إلى أن أحد أنماط ذلك العنف المعنوي قوبل به مجموعة من طلاب إحدى الجامعات، حيث تم وصمهم بالكفر وخروجهم عن الإسلام من قبل مجموعة من أساتذتهم.

لذا لم يكن مستغرباً أن يلاحظ في غالب تلك الوقائع أن نسبة مشاركة الشباب هي الأوفر؛ فحادثة غرانفيل تشير بجلاء إلى ذلك. وانخراط طلاب الجامعات في وقائع العنف المسبب دينياً يمكن قراءته من خلال الأثر السالب لمناهج مادة الثقافة الإسلامية، وهي مادة إجبارية في سائر الجامعات السودانية. ويكفي أن نشير بغير تعليق إلى ما ورد في بعض مقررات تلك المادة : " .... ومثاله تفسير ابن عربي الإلحادي الباطني، الذي جاء فيه بالطامات الكبرى المنكرة والمخالفة حتى للمعلوم من الدين بالضرورة، مما يتنزه المرء عن قراءته وسماعه ونقله، وأمثاله من تفاسير أهل البدع الذين اعتقدوا

مذاهب باطلة، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم السقيم، وعلى أصول مذاهبهم المارقة كتفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم، والجبائي، وعبد الجبار، وأمثالهم".[٢٠]

ولا يقتصر الخلل الذي أصاب بنية التعليم ومقرراته على المرحلة الجامعية، بل هناك جملة مظاهر للاعتلال والاختلال صاحبت المراحل التعليمية الأدنى تجلت في المناهج الدراسية والمناشط، بل وحتى نوعية الزي المدرسي الذي لم يسلم من أن يكون طرفاً في معادلة السلوك العنيف، أضف إلى ذلك إلزام الطلاب بأداء التدريب العسكري في سن يافعة.

د- الوسائط الإعلامية وبث الرسائل الداعمة للعنف

شهدت حقبة التسعينيات من القرن الماضي اشتداد أوار الحرب بين الحكومة السودانية والجيش الشعبي لتحرير السودان مع دخول أطراف أخرى لاحقاً أقل تأثيراً، واتسعت ساحات تلك الحرب لتشمل إلى جانب الإقليم الجنوبي مناطق جبال النوبة والنيل الأزرق وشرق السودان، كما شهدت محاولة لفتح جبهة عسكرية في جبل مرة. وفي هذه الحرب العسكرية سعى كل طرف للاستفادة من كافة الوسائط الإعلامية المتاحة له.

وفق هذا السياق اتجهت الدولة السودانية إلى توظيف وسائط الإعلام في دعم المجهود العسكري، خاصة في ظل حصار ما فتئت وطأته تزداد يوماً بعد يوم، عندها تبنت الدولة كل شعارات الحرب الدينية المقدسة في بناء وتعزيز رسالتها الإعلامية، ومن ثم وعبر التكثيف والطرق المستمر أضحت تلك الشعارات تغذي مخزون متراكم من العداء والكراهية ضد الآخر.

(٢٠) جامعة الخرطوم، إدارة مطلوبات الجامعة (د ت): مقرر مادة الثقافة الإسلامية، الطبعة الأولى، الخرطوم، ص ٢٧٠.

٦- نحو أفق مستقبلي

يتوافر المجتمع السوداني على صعيد الاجتماع الديني على رصيد ضخم من تجارب السلام والتسامح الديني. فالتدين السوداني تشكل من خلال روح رحبة في قبول الآخر والتعايش معه، ومنهجية أكثر ترفقاً ولطفاً في إحداث التغيير. وفق هذا السياق فإن وقائع العنف المسبب عقائدياً لا تعبر عن نزعات واتجاهات أصيلة، بل تشير إلى تحولات بدرجة ما عن سمات التدين السوداني، مما يحتم العمل على تعزيز اتجاهات التدين الأصيلة في المجتمع السوداني عبر وسائل التربية والتعليم والتوجيه والإعلام، والاهتمام بفئتي الشباب والطلاب على نحوٍ خاص.

٧- خاتمة

تأسست الدراسة حول رؤية كلية تنظر إلى مفهوم التدين بحسبانه ينصرف على نحوٍ مباشر باتجاه الكسب الإنساني فيما يلي استيعاب الأفراد العميق لأحكام ومرامي ومقاصد الدين في واقع حياتهم، سواء أكان في التصورات أو الشعائر والآداب، لذا فهو لا يعدو أن يكون محض كسب بشري يقوم به أفراد في زمان ومكان بعينهما.

أبانت الدراسة أن العنف يُنظر إليه باعتباره ظاهرة إنسانية لازمت مسيرة الإنسان يمكن النظر حيالها واستيعابها عبر مداخل ونظم معرفية عديدة كالأديان والفلسفة والتربية وعلم الاجتماع، وهو ما يجعل التوافق على تعريف جامع ضابط أمر بالغ العسر، خاصةً إذا أضفنا إلى ذلك تعدد صور العنف وأدواته.

حاول الباحث الخلوص لمفهوم كلي للعنف يساعد على ضبط منهجية الدراسة وتوجيهها نحو أهدافها، مشيراً إلى أن العنف يمكن النظر إليه من جهة ماهية وطبيعة الفعل أو السلوك الموسوم بمفارقة الرفق واللطف، أو من خلال كنه الجهة التي يصدر

عنها العنف، كما يمكن فهم ظاهرة العنف من خلال تحليل البنية الاجتماعية في سياق كلي، حيث أن العنف البنائي أو الهيكلي يمكن أن يمثل إرهاصاً لظواهر العنف السلوكي.

أكدت الدراسة المنزلة التي ظل يشغلها الإسلام منذ توطنه السودان في تشكيل وتلوين الحياة في المجتمع السوداني، مشيرة إلى جملة من العوامل التي شكلت الملامح والسمات المميزة للتدين في المجتمع السوداني، فأشارت إلى طرف من تلك العوامل التاريخية والحضارية التي أثرت على نحوٍ أساسي في تشكيل اتجاهات التدين في المجتمع السوداني.

خلصت الدراسة إلى أن اتجاهات التدين في المجتمع السوداني فيما يتصل بالإسلام تشكلت على نحوٍ مباشر من خلال استعداد اجتماعي عام لتقبل فكرة الانتماء والالتزام الديني، وبلورة تلك الفكرة من خلال منهج يميل نحو الرفق واللطف في التحول وإحداث التغيير، وفق منحى مسلك عام يعتمد التسامح والتعايش الديني سمتاً أساسياً لمظاهر تفاعل الأفراد مع تعاليم وآداب الدين الإسلامي. ولذلك بدا للباحث أن تلك السمات والاتجاهات لم تنتج أي نزعات أصيلة نحو العنف المسبب عقائدياً، ومن ثم فإن وقائع العنف التي برزت في الحقبة التي عنيت بها الدراسة إنما تعود لعوامل عديدة عملت بصورة مباشرة على إحداث اختراق لاتجاهات التدين في المجتمع السوداني، أهمها: ضعف مؤسسات التدين التقليدية، واعتلال مؤسسات التوجيه والإرشاد، والخلل في مؤسسات التعليم العالي والأدنى، الوسائط الإعلامية وبثها الرسائل الداعمة للعنف.